الفصل الأول

obeikandl.com

الشكل Form

هل هناك قواعد ونظريات لكتابة السيناريو؟ أو هل يمكن تدريس وتعليم فن كتابة السيناريو؟

... قد يقول البعض أنهم توصلوا إلى كتابة كثير من السيناريوهات الناجحة دون أن يكونوا على علم كبير بنظريات الكتابة السينمائية.. وقد يقول البعض الآخر أن لكل كاتب ولكل مخرج طريقة خاصة ينظر بها إلى القصة، ولذلك لا يمكن إيجاد قاعدة عامة أو قانون شامل.

وبالرغم من أن لكل كاتب طريقة خاصة ومزاجًا فنيًا يعالج به قصته. ولكن ولاشك أن كل معالجة– إذا كانت سليمة– لابد وأن تخضع حتمًا لقواعد البناء الدرامي. ومن المسلم به أن كثيرًا من الكتاب المجربين الذين يتمتعون بخبرة طويلة في الكتابة يجعلون من أية نظرية عامة شيئًا عاديًا. ولكن ذلك لا يعني أن أعمالهم الفنية تخلو من جميع عناصر البناء الدرامي. فمن يريد تعلم لغة من اللغات عليه أن يتعلم قواعد النحو الخاصة بها. ومن يعرف هذه اللغة ويجيدها لا يتحدث بها إلا طبقًا لمقتضيات النحو حتى ولو لم يكن واعيًا لذلك.

فالقوانين الدرامية تشبه القوانين العلمية تمامًا. وكل المشتغلين بالكيمياء يعلمون أن عناصر معينة في ظروف معين تسبب طريقًا معينا. وليست القوانين الدرامية بأقل دقة وإحكامًا من القوانين العلمية وإن كانت القوانين الدرامية غير ظاهرة لأنها غير ملموسة كما نرى في قوانين العلم.

ومهما كان التعرف على هذه القوانين الدرامية وخاصة في السينما صعبًا غير ميسور، فإن هذا لا يعني أن هذه القوانين ليس لها وجود. ومجرد أننا لا نعلم شيئًا عن أسباب مرض السل أو الملاريا فهذا لا يعني أن هذه الأمراض غير موجودة. وقد يحتاج الترعف على أسباب هذه

الأمراض وقتًا طويلاً. كما احتاجت الكيمياء وقتًا طويلاً كذلك حتى تم اكتشاف قوانينها وتم تنظيمها وجمعها، ولم تكن هذه الاكتشافات ظاهرة من قبل فاحتاجت للوصول إليها إلى مجهود شاق وجهد عقلي.

وقوانين السينما ليست واضحة أيضًا. وهي تحتاج إلى عكس ما قد نظن. ويمكن القول أن قوانين السينما أصعب مئات المرات من قوانين المسرح ومع ذلك فقواعد المسرح تطلب وقتًا طويلاً حتى ظهرت وتبلورت. وقد قضى شعراء اليونان الدراميون كاسخيلوس وسوفوكليس وأريبيدوس أحقابًا طويلة يدفعون بالمسرحية ويطورونها من شكلها البدائي كما ظهرت في الجوقة إلى ذوتها العالية، ولكن قواعد المسرحية لم تتضح وتتبلور إلا على يد أرسطو بعد مرور وقت طويل.

وقد قفزت السينما قفزات عديدة منذ اختراعها على خلاف المسرح الذي تطور تطورًا بطيئًا.

وفي البداية كان بعض السينمائيين يهتزون حماسًا كلما ظهر كشف جديد يتصل بطبيعة هذا الفن الجديد. وقد أمكنهم أن يكشفوا إمكانية التعبير بعناصر التعبر السينمائي في مثل الديكور والأكسسوار وغيرها. واكتشفوا المنظر الكبير Close up والمنظر المتحرك Travelling Shot، ثم توصلوا بعد ذلك إلى إضافة الصوت إلى الفيلم فأصبح ناطقًا، ولكن أغلب هذه الاكتشافات كانت تتصل بالشكل السينمائي، في حين كانت طريقة الكتابة للسينما لا تحظى باهتمام أو تحديد او اكتشاف، ولم تكن القواعد الدرامية التي خلقها هذا الشكل الجديد قد أصبحت معروفة ودارجة بين المشتغلين بالسينما الذين لم يتوقفوا عن تجاربهم وأبحاثهم. ولهذا فالسينما لم تصل بعد إلى شكلها النهائي والأخير، إنما لا تزال تتطور وتتقدم.

ولذلك كان من الصعب أن يصبح هذا الكتاب جمعًا لما تبلور من معلومات وتجارب عامة. فالكتاب الذي يعالج كتابة "المسرحية" لابد أن يجمع الحقائق التي تجمعت خلال مئات السنين عن الكتابة والتحليل المسرحي.

ولكن كتابًا يعالج السينما لابد أن يهتم بالبحث والكشف عن حقائق لم تكن موجودة من قبل. فإذا كان كتاب المسرح يبحث في الماضي، فإن كتاب السينما لا ينظر إلى الماضي، بل يتطلع إلى المستقبل.

ولهذه الأسباب لا يمن لأي كتاب عن السينما أن يتبع إلى نماذج أو قوالب مسلم بها من قبل. إنما المنهج الوحيد الذي يجب أن نتبعه هو المنهج العلمي التحليلي. ولنبدأ من الأساس ثم نتقدم بطريقة منتظمة خلال الموضوع كله. وعلينا أن نستبعد كل ما يتصل بالمصطلحات الدارجة، أو الأفكار غير الشاملة. ولن نسلم بأية قاعدة حتى ولو كانت مستعملة استعمالا منتشرًا

منذ أمد بعيد. ولن نحاول أن نأخذ القواعد من التطبيق المعمول والمسلم به بل سنحاول أن نعرض كل قاعدة ونستخلصها ونثبتها بعد ذلك.

بل إننا سنبتعد عن ترويج أية نظرية جمالية. فلسنا نهدف من هذا الكتاب أن نبين ماذا نكتب، ولكن كيف نكتب ولن نعالج مضموم القصة إلا في حدود علاقته بمقومات السينما. وكل محاولة توحي بنظريات فنية عامة مآلها الفشل لأنها لابد أن تكون آراء فنية فردية تتغير بتغير العهود بل وتثقل على حرية الكاتب وإبداعه الخلاق.

وقد كان الجميع يذهبون إلى أن السينما فن له إمكانيات لا تحد. فمن السهل أن تنتقل بالكاميرا إلى أي مكان، وأن تنقل قضبان السكة الحديدية إلى الشاشة. وما أسهل كذلك أن تصور المواقع الحربية والسفن ومناجم الفحم. وأن تصنع أفلامًا قصيرة أو طويلة أو تقتبس الروايات المكتوبة والمسرحيات والقصص القصيرة والملاحم الكبرى والدراما. بل تستطيع أن تخرج أفلامًا مستمدة من لوحات الصور ومن قصائد الشعراء. تستطيع كل ذلك. ولكنك لا تعلم أن الفيلم لابد له من شكل خاص له قيود شديدة لابد من مراعاتها.

ولعل أول مهامنا أن نحكم هذا الوهم الكبير حول حرية السينما المطلقة. فلكل حرية قانون خاص تفرضه. والحرية لا توجد إلا إذا كانت هناك قيود تقبلها الإرادة.

وهذه الحرية التي تبدو للسينما لها مطالب قاطعة غالبًا ما يتجاهلها الناس. وكثيرًا ما يحاول البعض الخروج على مقتضياتها ولكن كثيرًا ما يكون مآل ذلك الفشل.